

مصطفى صادق الرافعي شبهات وردود

د. أحمد عبد العزيز عواد

جامعة الانبار- كلية الآداب / قسم اللغة العربية

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان فعلمه البيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح أهل الأرض انهم والجان وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وبعد: فهما مبحثان اثنان ليس لهما ثالث أقيمت عليهما بناء هذا البحث، تكفل الأول بإحصاء (مجلد الشبهات) وأباح الثاني عن (منتقى الإشادات)، ثم جاءت الخاتمة لتتوج البحث بأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج وإشارات بعد أن كسى البحث صاحب المقام الرافعي بأجمل حلة وأروع بيان.

فهو مصطفى صادق الرافعي ولد عام ١٨٨٠ م في قرية بهتيم بمصر ونشأ نشأة إسلامية، حفظ القرآن وعمره عشر سنوات، وقرأ الصحاح واطلع على أمات الكتب في اللغة والأدب. لم يكمل من الدراسة سوى الابتدائية بسبب مرض الصمم الذي أصابه على إثر حمى شديدة أملت به.

قضى الرافعي حياته يدافع عن العروبة والعربية والإسلام فقد وقف ضد دعاة السفور في عصره وكذلك ضد مروجي فكرة إشاعة اللغة العامية من أذئاب الفكر الغربي.

كانت له معارك أدبية عنيفة خاضها مع بعض أدياء عصره من أشهرها معركته مع الكاتب طه حسين والأخرى مع العقاد. وخير ما يجسد تلك المعارك كتابيه: «تحت راية القرآن» و «على السقود، نظرات في ديوان العقاد».

له مؤلفات كثيرة من أبرزها «وحي القلم» في ثلاثة أجزاء و «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» و «أوراق الورد» و «كتاب المساكين» و «ديوان الرافعي» في ثلاثة أجزاء وكتب غيرها.

توفي سنة ١٩٣٧ م بعد أن صلى الفجر وقرأ شيئاً من القرآن فشعر بحرقة في معدته مات على إثرها رحمه الله. ^(١)

لم يكن الرافعي وحده من عباقرة العالم الذين ظلمهم التاريخ فلم يحضوا بالاهتمام والتقدير الذي يستحقونه والذي يناسب المكانة والمنزلة التي بلغوها.

فالرافعي هذا من أولئك النفر القليل الذين يشار إليهم بالبنان حين يذكر الأدب ولا سيما الأدب الحديث؛ لا لشيء إلا لأنه بلغ بالأدب ذروته وحاز على لقب نابغة الأدب وإمامه والأديب الملمهم وغيرها من الألقاب التي سأتي على ذكرها في المبحث الثاني من هذا البحث.

حصل على تلك النعوت والمناقب بفضل جهده وجهاده في الدراسة والبحث والمثابرة التي امتزجت مع ما يمتلكه الرافعي وما من الله به عليه من موهبة مهدية ونشأة إسلامية اكتسبها من البيئة الرافعية التي عاشها في كنف أبيه وأسرته، ثم التقبل الجيد الذي أحاطته عناية الله جل وعلا حين اصطفاه لأن يكون في يوم من الأيام الحارس الأمين للغة العربية وآدابها وللقرآن العظيم من ثم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فهو القائل: (ويخيل إليّ دائماً أنني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه) ^(٢).

كل هذا اجتمع للرافعي والكل يعلم ذلك بمن فيهم أعداؤه أنفسهم، لكن الظلم وقع والحق اندثر والخُطّة نجحت على ما يريده أعداء اللغة والدين وأصدقاؤهم ممن تأثروا بالفكر الغربي ولم يجدوا سبيلاً لإظهار أدبهم وحصول شهرتهم إلا بهذا العمل الذي طمسوا به الحق عند غيرهم ليرفعوا أدبهم الدخيل.

وما دراستي للرافعي وأدبه وما تميز به من الفكر والبيان بشكل خاص بعدما يقرب من سبعة عقود مضت من الأعوام على وفاته إلا دليل على أن الأدب الصحيح الناضج النابض لا يموت مهما أهيلت حوله الرمال ومهما علاه الغبار وهذا مما لا يختلف فيه اثنان والتاريخ يشهد بذلك.

ولقد أحصيت العديد من الشبهات التي أثارها الناس وفي مقدمتهم معاصرو الرافعي من أدباء أو قراء أو نقاد عن شخصه وأسلوبه وفكره وما يتعلق بذلك.

وهأنذا أقوم بسرد معظم ما أثاروه لأرد عليه إنصافاً لا تعصباً مستعيناً بما توافر لي من معلومات حصلت عليها من خلال قراءتي المعمقة لفكره ولأسلوبه وما بذله في الدفاع عن العربية والإسلام وعن تراثنا العربي الخالد.

ومستعيناً أيضاً بما قاله غيري من الأدباء والباحثين المنصفين في هذا الشأن وسأبدأ بذكرها على حسب أهميتها وأثرها المباشر في الرافعي وأدبه.

وإني إذ أذكر هذه الشهادات أنظر من خلالها حيزاً واسعاً أضع في امتداده المدائح التي أرسلتها وسأرسلها للرافعي وأدبه بعد أن وجدت المسوّغ الذي يمنحني الحرية في الإدلاء بها وإذاعتها للناس حتى ولو طافت فوق جميع صفحات البحث.

المبحث الأول

مجل الشبهات

*** **

أولاً: شبهة الغموض

من أولى التهم التي اتهم بها الرافعي هي صفة الغموض في أسلوبه، وأن أسلوبه أقرب إلى الطلاس من حيث إنه معقد لا تكاد تفهم منه شيئاً ثم إن عباراته كلها رموز لا يمكن للقارئ ولا الناقد حتى فكها، وهذا هو زعمهم وهذا هو قولهم أو إن شئت فقل (افتراؤهم).. فهو لاء وأمثالهم ممن لم يستطيعوا الوصول إلى أهدافهم الأدبية ولا إلى ما يتطلبه الأدب ويريد منه القارئ ضاقوا ذرعاً بما عند الرافعي وما توافر له من تلك الصفات فلم يروا بدا من أن يلحقوا التهم على هذا الرجل البريء الواحدة تلو الأخرى سعياً منهم لإسقاط أدبه وطمس شهرته وغيابه عن الساحة الأدبية التي تربعوا هم على عرشها.

يقول العريان وهو يتحدث عن كتاب الرافعي الأول في خواطر الحب (حديث القمر) :

(ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين^(٣) ومنه كان أول زادي وزاد كثير من القراء الذين نشأوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم)^(٤).

ولما صدر كتاب الرافعي الثاني في هذا المعنى (رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب) زعم الدكتور طه حسين أنه لم يفهمه كذلك ؟

وهكذا بالنسبة إلى كتاب (تاريخ آداب العرب) الذي رماه الكاتب نفسه بالنقص وأنه لم يفهم منه شيئاً !. علماً أنه عاد وأثنى عليه عام ١٩٢٦ عند كتابته عن الشعر الجاهلي^(٥).

(وها هم يذهبون إلى أنه لا أسلوب له ويعدونه مع الغموض آية الجمود والوهن في أدبه، وهو رأي من الرأي لا يثبت على النظر، يكشفه ما قيل في خصوصية تكوينه المفضي ضرورة إلى خصوصية أسلوبه، فضلاً عن الفرق الظاهر الباد، بين أسلوبه وكل أسلوب غيره قديماً أو حديثاً المنكشف من فوره لكل ناقد مميز، عارف بأطوار الكلام، بصير بالأساليب)^(٦).

ويعجب النجار كيف يتهم الرافعي بالغموض وهي الصفة نفسها التي من أجلها جعل البارودي إماماً للشعر العربي الحديث لتوافرها في شعره ، وهكذا القول في الغموض: فبينما هو من محاسن الشعر حين تعد محاسنه ومن المغريات بقراءته عند من يتوفر على قراءته ومن وجوه الإمتاع فيه إذا به يصبح وبالأ ونقمة على الرافعي ويعد من مساويه التي لا تغتفر وأحد الأمور التي تذكر حين يراد الغض منه والزراية عليه^(٧). كما يعجب النجار من تلك الجناية على الرافعي معبراً عن ذلك بالقول: (ويبدو ذكر الغموض كلما ذكر الرافعي أشبه شيء بـ (فعل منعكس شرطي) عند من يذكر ! كأنه (الجفاف) الذي يذكر أسلوب العقاد وهو عجيب من أحكامهم، وأعجب منه تعليقه بمنطقيته ! يرون أنه جاف لأنه منطقي ...! فيه جفاف المنطق وصرامته ...! من أجل المنطق جاف صارم..! ألا يمكن من صفته - مكان ذلك - أن يكون جامعاً محيطاً لأن صاحبه عالماً ودقيقاً ومحرراً، لأن صاحبه عاقل، وقريباً سهلاً لأنه متمرس حاذق ! هكذا وكأن أساليب غيره ممن يستعملون المنطق ولا يرون ما يكتبون على أحكامه ومقتضياته رياض نضرة وجنات غناء)^(٨).

وللكاتب عبد الوهاب عزام رأي فصل في قضية الغموض في أسلوب الرافعي يفهم من قوله:

(والرافعي يغرب أحياناً، أو يدق فينبهم معناه، وفي هذا ثورة بعض الأدباء عليه، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن انه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفي، لم ترضه الألفاظ، ولم يذللها الكتاب، أو يتلطف لفكر نفور أبد ليختله. وكثيراً ما يخيل إليّ وأنا أقرأ أبدات الرافعي أنني اتبع بصري طائراً يرتفع في اللوح، ثم يرتفع حتى تضمره السحب فلا تراه العين، ولكن تعرف أنه في جو السماء فإن قيل: إن هذا حكم الإعجاب والرضا، قلت: فإني أتهم نفسي، فلا أدفع عن هذه الأوابد، ولكن " وحي القلم " بريء من الغموض والإبهام، وإنما أكتب اليوم عن " وحي القلم ")^(٩).

ويبدو لي بعد ذلك أن أولئك الذين اتهموا الرافعي بذلك لم يقرؤوا للرافعي ولو شيئاً يسيراً ولم يعرفوا من مؤلفاته سوى عناوينها لذا فهم أحد أمرين: إما أنهم اكتفوا بما يتناقله الآخرون ورضوا بالسماع فقط دون التمهيص والتأكد والنظر والتدقيق التي درسوها في أصول البحث وقرؤوها في صفات الباحث، أو أنهم لم يصلوا إلى المستوى الذي وصله الرافعي من دقة الأسلوب وسعة الخيال والبيان الراقي، فلم يفهموا شيئاً من كتاباته ثم لم يجدوا مخرجاً من مأزقهم هذا سوى الإنكار عليه واكتفوا بالقول: أسلوب غامض وألفاظ معقدة وعبارات ليست من العربية والبلاغة في شيء.

لذا نجد الكاتب أحمد حسن الزيات يهمس في آذاننا فيقول إن (... أكثر الذين كرهوه - يعني الرافعي - هم الذين جهلوه: كرهه الأدباء لأنه أصحّر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه. وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه. وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور ! إنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه، وأدرك سرّ العقيدة في إيمانه...) ^(١٠)

ولو أنهم قرأوا كتب الرافعي وأمعنوا النظر فيها لرأوا ما تقر به أعينهم، ولوجدوا ما يسبي عقولهم ويدعوهم إلى العكوف عليها، حين تغنيهم عن كثير مما كانوا يطلبون، ثم لجأت أحكامهم على العكس مما قالوا وما زعموا.

وإنني لأعتقد جازماً أن في كتاب (وحي القلم) وحده ما يكفي لما قلته بسبب ما فيه من القيم الشعورية والقيم التعبيرية التي يقف القارئ عندها لا يدري ما يقوله من دهشته مما يسمع ويرى.

يضاف إلى هذا السبب سبب آخر يبدو في حقدهم وكراهيتهم وتجنبيهم على هذا الرجل الهمام، وهو أن أولئك النقاد والأدباء وبعض الذين أخطأوا التصويب من غير عمد وغيرهم ممن فقدوا العدل والإنصاف، كل أولئك كانوا بعيدين عن البيئة الإسلامية النقية. أما الرافعي فمما لا يخفى على أحد أن كتاباته حتى الغزلية كان يمزجها بالتعاليم الإسلامية التي تربي عليها، يشهد له دفاعه عن القرآن الكريم ولغته وما كتبه في ذلك من مقالات وكتب ومؤلفات، لذا فهو لاء المتهمون الجناة في واد والرافعي في واد آخر، والمثل الشائع يقول: (المرء عدو ما جهل)، وربما لا يتسنى لأحدهم فهم إرادة المعنى عند الرافعي في أحيان كثيرة لابتعادهم عن حقيقة الإسلام والغاية التي من أجلها خلقوا. لا بل أنهم لم يعرفوا حقيقة الأدب نفسه وكيف أن ذلك الأدب ما هو إلا رسالة في الحياة يؤدونها وهي من أعظم الرسائل الموجهة إلى المجتمع بأسره وأن من دونه (أي الأدب) لا يمكن للعالم أن يسير ولا للدين أن يسود.

ولعل من دواعي حقدهم - أخيراً - أنهم لم يتحملوا ذلك التراجع الذي ألم بهم إثر التقدم الذي لحظوه آنذاك عند الرافعي والتفاف الناس حوله ومنهم على القوم في مصر ولا سيما أنه أديب ذاعت شهرته في بداية شبابه وأنه لم يكمل من الدراسة سوى الابتدائية وهذا مما زاد غيظهم عليه وحقدهم.

ويظهر هذا الحقد واضحاً جلياً حين نسمع من الشيخ خليل حوراني رأيته الذي ينصر فيه أسلوب الرافعي وهو يتكلم على كتابه (تاريخ آداب العرب) وتحت عنوان (جاحظي الأسلوب) فيقول بجهل أعدائه ومبغضيه معبراً عن ذلك بقوله إن (الذين يضيّقون بالكتاب الآن يضيّقون به لأسلوبه البياني فالرافعي في كتاباته جاحظي الأسلوب، يهتم بالديباجة العربية اهتماماً يرتفع بقارئه، ولا يحاول أن يهبط إلى مستوى الأسلوب الصحافي العام، وقد يكون الرافعي أوغل في هذا الاتجاه إيغالاً جعل بعض الصفحات تحتاج إلى اتئاد في المراجعة، كما كتب له مقدمة يضيّق بها من لم يألّف كتب التراث، ويقرأ آثار الجاحظ وابن المقفع وأبي حيان من أئمة البيان ... فأسلوب الرافعي في مقدمات الفصول ينحو هذا النحو، وهو منحى يألفه ذوو الأذواق الأدبية، من نابهي العصر، ولكن الذين يكتبون كما يتحدثون، يضيّقون بأسلوب الرافعي، كما يضيّقون بأساليب البلغاء من أمثال ابن المقفع وأبي حيان !! وقد ظل الرافعي على مذهبه البياني في سائر ما كتب، ولكنه تخفف قليلاً حين اجتذبت الصحافة الأدبية إلى ميدانها، فلم يترك جمال الصياغة وروعة التحليق الفكري ولكنه حاول أن يقرب معانيه قدر المستطاع، ولا يزال للكاتب الكبير عشاقه الأصلاء ممن يعرفون روعة البيان الأدبي، بل فيهم من يرى الرافعي فرداً لا نظير له في ارتقائه الأدبي^(١١).

ومن أحسن ما قيل في وصف أدب الرافعي والذب عنه في هذا الخصوص ما قاله تلميذه البار وصاحبه الوفي محمد سعيد العريان (والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عسر الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يدر عن طبع، وعند بعضهم غامض معمى لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثير من أهل الأدب وذوي الذوق البياني الخالص أديب الأمة العربية المسلمة، يعبر بلسانها وينطق عن نفسها، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص في وسائله، أو كدرة في طبعه، ولأن بينه وبين طبيعة النفس المسلمة التي ينطق الرافعي باسمها حجاباً يباعد بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعناً^(١٢)).

أما الجامع لكل تلك الأسباب التي مضت فيمكن وضعه في دائرة الغزو الفكري الموجه ضد العرب والمسلمين من خلال الإساءة إلى اللغة العربية التي هي سر نهضتهم، فلم يكن الغرب يعيش بمعزل عما كان يجري آنذاك في مصر وغيرها من بوادر النهضة الحاصلة على صعيد الأدب بالذات ولم تغب عنهم تلك الهتافات التي كانت تنادي بإعادة مجد العرب ومجد الإسلام، والتي يأتي الأدب في مقدمة أسبابها.

ولقد أدرك الكاتب والروائي الشهير نجيب الكيلاني تلك القضية فراح يفسر حقيقة ما يجري - وتحديدًا عند ذكره للرافعي الأديب - ليرده في النهاية إلى الغزو الفكري الموجه صوب أمّتنا العربية، فيقول:

(لقد أدى الرافعي رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة دفاعاً عن اللغة وأصالتها ودفاعاً عن الإسلام وقيمه الغالية وحضارته الخالدة، وقرر في معظم كتاباته أن الحل الإسلامي هو الحل الصحيح لمشاكلنا،

لكن ما معنى مؤامرة الصمت التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق، أهى جزء من المؤامرة الشاملة ضد الإسلام وأهله في هذا العصر؟ أم هي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيرة الباهرة في تاريخنا الإسلامي المعاصر؟؟^(١٣).

من هنا رأينا تلك الحملة الفكرية الشعواء وهي تبعث في سهامها وتحرك طبولها لتقرع أسماع المستأجرين وقد وجدت لها أبواباً كثيرة تنادي بصوتها وتتكلم بلغتها وتنقل أفكارها وتبث سمومها في قلب الأمة العربية، شعر بذلك أهل الأدب أم لم يشعروا المهم أن الأمر وقع فكانت المعركة بين أنصار الحداثة أو ما يسمى بالجديد من الأدب وبين الذين حافظوا على التراث القديم ودافعوا عنه ولم يرضوا لأحد أن يتخلى عنه ولا أن يقاطعه بل أبوا إلا أن يبقى المَعين الصافي الذي يستمد الأديب منه أدبه؛ أدباً ناصعاً صافياً يقرؤه الناس ويفخروا به ويفيدوا منه ويحققوا نهضتهم التي لا تقوم إلا به، فهما الركنا الخالداً اللذان لا تقوم نهضة هذا الشرق العربي على أساس وطيد إلا بهما: الدين الإسلامي واللغة العربية وما عدهما فعسى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية، كما نص على ذلك الرافعي المتهم نفسه.^(١٤) فكان ذلك الغزو الفكري سلاحاً من أعظم الأسلحة التي استخدمها أعداؤنا في الغرب ضدنا فأحدثت انهياراً واضحاً في مجتمعاتنا مضى ضمن مخطط جائر يرمي إلى إذابة اللغة العربية ومن بعدها القرآن العظيم من خلال إشاعة اللغة العامية والأساليب الدخيلة على المجتمع العربي بأسره بحجة التقدم الحضاري المزيف، فكان أن وقعت الواقعة بين أنصار ومؤيدي هذا الفكر وبين مصطفى صادق الرافعي، والحق أن ذلك التيار كان يمثل ضربة قاسية وموجعة أصابت الرافعي الذي استطاع أن يتصدى لها بجسارة وبقوة وأن يرد لهم تلك الضربة بضربة أقوى منها وأن يكيل لهم الصاع صاعين.

وأترك أخيراً الرافعي يرد على خصومه بكلمات فيها الإيجاز وفيها الحكمة رداً جامعاً مانعاً يسكت اللبيب ويقنع الأديب فيقول: (أما هذا الذي يسمونه غموضاً وترقيقاً فما أنا بصاحبه ولا العامل ولكنه طورٌ من أطوار الزمن لا بد أن يسبق نهضة التجديد كما سبق من قبل، فقد كانوا يصفون به سيدي شعراء العرب أبا تمام والمتنبي حتى قالوا في أبي تمام إنه فسر الكلام وأحاله وعقده بتعمُّله وصناعته وأنه أتعب الناس حتى صار استخراج معانيه باباً منفرداً في الأدب ينسب إليه طائفة من العلماء)^(١٥).

وأعجب من ذلك أن نراه يهاجم الغموض منتقداً الفلاسفة في كلامهم، وبعض الشعراء في استغلاهم من الذين يمتنون صناعة الألفاظ بهرجة وزينة إذ يقول:

(... فإن الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان إلا وهي غنية عنه، ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة...)

ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقص معناها، إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ، فها هنا البديع اللفظي، وهناك البديع الفكري، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة)^(١٦).

وله في موضوع يرد فيه على من عاب أسلوبه (وربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك وبأنه محير، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكليف، ولكن الحرية كذلك، إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب)^(١٧).

ثانياً: شبهة الغزل

قالوا إن الرافعي شاعر الحسن والجمال^(١٨) وهو كذلك فقد سعى في أول أيامه الأدبية لأن يكنى بشاعر الحسن، وقد حصل له ما أراد ثم استمر هذا النعت وعلق به حتى صار المغرضون يتخذون منه سبيلاً إلى التهمة والانتقاص منه والطعن في كتاباته التي غلب عليها طابع الدين والمحافظة على اللغة والتمسك

بالتراث العربي الأصيل والوقوف ضد كل التيارات المناهضة للعربية والإسلام سواء تلك التي تنبعث من الداخل أم تلك التي صدرت من الخارج عن طريق متعديها ممن رضعوا لبانة الفكر الغربي المعادي لكل صادق أمين يريد لبلده النهضة ولأمتة الرفعة والتطور والوصول.

كل ذلك دفعهم إلى إثارة الشبهات عنه فكان منها (شبهة الغزل)، وكان مما ينال به من الرافعي رحمه الله، وها أنذا أوضح كيف جرى ذلك؛ فمنذ أن ذاع صيت الرافعي واشتهرت على المحافل أشعاره ورسائله وعلى الأخص منذ أن حصل اللقاء بينه وبين الأديبة اللبنانية (ممي زيادة) وتطور بعدها إلى علاقة أو قل معركة باردة في الهوى والحب كانت سبباً في إنشاء كتب (حديث القمر، ورسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد) وإن شئت فقل باقي مؤلفات الرافعي الأخرى إلى أن مات - رحمه الله - منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا ونحن نعرف الرافعي الكاتب المحب فما يذكر الرافعي في سطر من كتاب إلا وللأنسة مي نصيب في ذلك السطر نفسه وليس من شيء يذكر سوى حبها له وحبها له ولم يبق إلا أن يلقبوه بـ (مصطفى مي) كما اشتهر ذكر كثير عزة، وجميل بثينة وقيس وليلى وغيرهم.

ولو أنا سلمنا ورضينا بوجود مثل هذا الشيء فما الضير أن يذكر الوجه الآخر للرافعي الكاتب البياني والمصلح الاجتماعي والأديب العبقرى، أين هؤلاء من كتاب (أعجاز القرآن والبلاغة النبوية) وأين هم من كتابه (تحت راية القرآن) و (وحي القلم) لا بل إن ما ذكرته من الكتب الأربعة الخاصة بالحب والهوى بينه وبينها ما أن يقرأها قارئ حتى يعلم يقيناً بأنها ما للحب كتبت فحسب ولكن للأدب وللعلم وللهم بل للدين، وكثير هم الذين يظنون خلوها من كل ذلك.

إن الحاجز الذي وضعه المتهمون أمام هذه المؤلفات بعد أن شوهاوا الحقيقة والبسوا الرافعي وكتبه لباس السوء والهوى والمرض كانت كارثة أكلت بالأمة إلى حد ما ابتعدت بعدها عن معيها الصافي الذي أخرجه الرافعي لها في شكل يواكب عصرنا لا صعب ولا سهل عوان بين ذلك فافهموا ما تكتبون.

فالإ الذين حصروا الرافعي في دائرة الحب والهوى والغزل وإلى الذين لم يروا في أدب الرافعي سوى تلك الكتابات الغرامية التي دارت بينه وبين مي - على حد قولهم - والذين لم يعرفوا من كتب الرافعي التي ألفها سوى الغزل ومشتقاته إلى أولئك الذين نسوا أو تناسوا أدب الرافعي الخالد وتراثه الأصيل وكتباته التي لا غنى لأحد عنها سواء من أهل الأدب والبيان أو غيرهم من عامة الناس.

إلى أولئك جميعاً أتلو هذه الشهادات وتلك الأقوال ورأيي معها حاصل كي أميز بين الغث والسمين وافرقة بين الحق والباطل وأظهر الحقيقة جلية ناصعة لمن يريد الحق ويسعى إليه ويطمح إلى إيجاده والانتفاع به، وأبدأ بالأستاذ طاهر الطناحي وهو يتحدث عن الرافعي حديث العالم الفقيه يظهر لنا حقيقة الحب عند الرافعي ويصرح بأن: (الرافعي وهو الشاعر المرفه الحس والأديب العاشق للجمال لم يتخذ الحب وسيلة إلى التسلية واللهو وخدمة الجسد بل كان عنده وسيلة للوحي الأدبي والإنتاج الفني، كما هو واضح من قوله: (ما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب) وقال: (إن المرأة للشاعر كحواء لآدم تعطيه بحبها جديداً، وإن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق).

ومن أجل ذلك الوحي ومن أجل ذلك الفن، نظم ما نضم في الحب، وكتب ما كتب من رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر وهي أول رسائل أدبية في اللغة العربية كتبت بهذا الأسلوب فلم يسبق لأديب عربي قبل الرافعي أن كتب على هذه الطريقة الجيدة التي أودع فيها فلسفة الحب وفلسفة الجمال وخلجات النفس وخواطر الوجدان في أسلوب فني خصب رفيع^(٢٩).

ثم يسترسل الكلام عن حب الرافعي ونزاهته وكيف كان حباً عذرياً عفيفاً طاهراً ليقول إن الرافعي (حين ألف رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وهو في كهولته من وحي أديبة نابغة وكاتبة جميلة بارعة لم يصرح باسمها حفاظاً عليها من القيل والقال، لا كما كان يفعل الشعراء والأدباء والمحبون بل جعل حبه سراً في فمه وعاطفته إبداعاً في أدبه)^(٣٠).

ولعل خير ما يشهد على طهارة ونقاء وصفاء الحب عند الرافعي هو ذكره الأغراض التي كان يرمي إليها من تأليفه كتاب " أوراق الورد " وهي:

سد المكان الخالي في الأدب العربي من أول تاريخه إلى اليوم، وإعطاء بالأخرى.

وضع عمل حاسم يفصل في النزاع القائم بين القديم والجديد، لأنه نزاع كلامي إلى أن يضع أحد المذهبين عملاً يعجز المذهب الآخر، ومن المستحيل على حد قول الرافعي، أن يوجد اليوم في العربية من يستطيع مثل هذا الكتاب بمثل هذه المعاني، وبمثل هذا الأسلوب.

تطهير فكرة الحب، وتهذيب معانيه في نفوس الشبان والفتيات، والسمو بهذه الفكرة إلى الجهة الشعرية الروحانية التي تسمو بها النفس بدلاً من أن تسقط، وهذا غرض تهذيبي عظيم.

الرد على الكتاب الأوربيين الذين يعيبون العربية بضعف التصوير للعواطف، وأنها ليست لغة تحليل، فأوراق الورد دفاع عظيم عن اللغة، كما أنه تجديد فيها وفي الأدب^(٢١).

وقد تستغرب أكثر حين تسمع حوراني وهو يفسر لك حقيقة الغزل عند الرافعي وتأخذك الدهشة كذلك وأنت ترى نوعاً جديداً منه لم يألّفه أهل العصر من الكتاب والقراء إذ يقول (وقد يكتب الرافعي عن الوجدانيات العاطفية في (أوراق الورد) و (رسائل الأحزان) فلا يخرج عن هدي الدين في شيء لأن الحديث عن العاطفة الشريفة يمت إلى القرآن بنسب أصيل وأنت حين تقرأ الغزل العفيف تحس بارتفاع في مشاعرك وسمو في اتجاهك وحاشاك مع هذا النمط الوافي في البيان أن تسفّ إلى نزوة هابطة أو تطبع عاطفة رعناء والشعر الذي شغل به الرافعي رديحاً غير قليل من حياته كان شعر المروءة والعزة وينشد المجد والاستقلال وترجمان الطهارة والمروءة والشرف وذلك ما ينطق به قوله:

قلبي يحب وإنما / أخلاقه فيه ودينه^(٢٢)

وهكذا لم تكن المرأة عند الرافعي غاية دنيئة أو هدفاً يفنى في تحقيقه، لكن الرافعي عاش حياته وعنده من الأهداف السامية ما يتمنى كل إنسان أن يحوز شرف تحقيقها، عاش الرافعي للناس والمجتمع، لم يكن الرافعي ليرضى أن يعيش بمعزل عن الآخرين أو عمّا يدور حوله من تدهور يراه في شتى المجالات لاسيما الانحطاط والتدني الذي أصاب اللغة والأدب آنذاك والعربية التي باتت تحتضر ترجو من يعيد لها الحياة وهي ترقب الأمل بيزغ مع فجر الرافعي الطالع من بين كتبه وفي سماء خياله محاطاً بدينه وأدبه ممزوجاً بعبقريته وإلهامه في بداية إشراقه قلم ساهر تتجه صوبه النهضة المصرية والعربية ثم العالمية.

إن رجلاً كالرافعي يحمل هموم العالم ويرضى بالفاقة، ويصبر على المرض موظفاً بسيطاً في إحدى محاكم مصر يموت ولا يملك بيتاً يسكن فيه؛ رجل كهذا لا يطمع في لذة عابرة كهذه، مع أن الرافعي أحب وأخلص في حبه بعد أن عرف معنى الحب فأخلص له الحب فوهب له الفن ومزج بين الحب والفن حتى كان الحب عنده طريقاً أو وسيلة عظمت لفهم الجمال وإدراكه فهو القائل (الفن عندي في الحب أن يبدأ في المرأة ولكن لا ينتهي فيها فالمرأة طريقة لا غاية وهي وسيلة لفهم الجمال وإدراكه فيما هو أجمل منها، أي في الوجود نفسه بكل ما فيه، كأنه الخلود الروحي في الإنسان يحاول الحب أن يحس معانيه السامية الخالدة – وهو بعد في هذه المادة الفانية المتغيرة)^(٢٣).

ويشهد على ذلك الوصف وذاك النقاء المنغمس في الفن الكلامي ما كتبه الرافعي في جميع ما ألف وأبدع (فقد كان الرافعي عاشقاً من طراز جديد يضع كرامته إلى جانب قلبه لا يفترق أحدهما عن الآخر، فلا غرو إذن أن يُخلف لنا شعراً غزلياً عذباً رائقاً يفيض بالرقّة والنقاء)^(٢٤).

وأترك الكلام لحضرة الأديب المحب يكشف النقاب ويميط اللثام عما جهله المشككون وأخطأ فهمه الباحثون والدارسون كي نسمع منه الكلام الفصل في الحب ومعناه وماذا كان يعني عنده إذ يقول (من الحب رحمة مهداة فإذا كنت مع الله كانت كل أفكارك صوراً روحانية فأنت كالمملك: هو في الأرض ما هو في السماء، ومن الحب نقمة مسلطة فإذا كنت مع الشيطان كانت أفكارك صوراً حيوانية فأنت كهذا المتهمج الطيَّاش الذي لو نظر في كل مرآي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد لأنه القرد ... !

والناس في هذا الحب أصناف: فواحد يجاهد زلَّاتٍ قد وقعت وهو الحب الآثم وآخر يجاهد شهوات تهم أن تقع وهو الحب الممتحن وثالث أمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خطرات الفكر وهو الحب ليحب فقط، ورابع كالقراية والصديق عجز الناس أن يجدوا مني لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها في هذا المعنى وهو الحب وعلى الثالث وحده بنيت (رسائل الأحران) وعلى بعض الرأي في الباقيات كسرت هذا الكتاب^(٢٥).

ثالثاً: شبهة النقد اللاذع

لا أريد في ذكر هذه الشبهة أن أقف إلى جانب الرافعي وهو يسلط لسانه على خصومه يهز به عروشهم ويفضح أفكارهم وآدابهم ويسخر منهم بالطريقة التي قل أن نجد لها مثيلاً في أدبنا الحديث، فلست أحاول إيجاد المسوغات التي دعت الرافعي واضطرته للكتابة بهذا الأسلوب الشنيع، فأني أقف وأعترف أن الرافعي - رحمه الله - كان قاسياً كل القسوة في رده على الدكتور طه حسين في كتابه (تحت راية القرآن) وأقسى منه في رده على العقاد في كتابه (على السفود) - وهما أشهر أدبيين كانا قد تعرضا لنقد الرافعي المقذع، علماً أن هناك معارك أخرى كان قد خاضها الرافعي مع زكي مبارك وسلامة موسى وعبد الله عفيفي، لست أذكرها مكتفياً بمعركتي (حسين والعقاد) - لكنني مع إقرار بما قلت وأنه مما لا يليق بأديب مثل الرافعي وأدبه فعل ذلك، إلا أن وجه الاعتراض على هذه الشبهة هو إلصاق هذه التهمة بالرافعي وأدبه إلصاقاً أخذ أكبر من حجمه وتعميمها في أحايين كثيرة على سائر أدبه السامي كما حصل في ما ذكرت من شبهتي الغموض والغزل حتى صارت صفة يعرف بها الرافعي وتُذكر إذا ذكر، وأكثر من ذلك إذا حضر معه الدكتور طه حسين وكذا العقاد حتى حصروه في النهاية ضمن دائرة المعارك الأدبية التي حدثت آنذاك وشاعت ودوى صداها في مصر على نطاق النقد الحديث.

ولعلي إزاء ما تقدم التزم الحيادية إلى حد ما وأنا أقف أمام هذه الشبهة التي قد لا أستطيع أن أجد لنفسي فيها رأياً قاطعاً وقولاً فصلاً لذا سأترك المقام أولاً لتلميذه البار محمد سعيد العريان يتحدث لنا عما سماه بالحديث الشائك فيقول عن أستاذه الرافعي: (لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس؛ وكان فيه حرص على اللغة (من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء: لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً).. فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً يهاجم خصومه على طريقة عنتره: يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ! أقرأ له في أول كتاب المعركة: (... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطيرة، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا جهلنا من نجهله يلطف منه، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم، فما ذلك أردنا؛ ولكن كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل، فما به زجر الأول بكل عظة الثاني...) (٢٦).

وعن كتابه (على السفود) وما حواه من النقد الجارح في حق العقاد أترك المقام ثانياً للأستاذ حسن السماحي سويدان يناقش أسلوب الرافعي هذا في المقدمة التي قدّم بها الكتاب إذ يقول: (والكتاب على الرغم مما فيه من قسوة بالغة وعبارات قاسية في حق العقاد، فإن فيه تذوقاً رفيعاً لأسرار العربية وأساليبها البيانية ووقفات بدیعة حول صناعة الشعر ونقده ومعرفة غنّه من سمينه كيف لا، والكاتب شاعر متمكن من أدواته؟! وقديماً قالوا: القزاز يعرف ما لا يعرفه البزاز).

وكما أن العبارات القاسية التي كتبت عن أبي تمام والبحتري والمنتبي لم تمنع القراء من قراءتها والاستفادة مما فيها من آراء صائبة ونظرات ثاقبة لولاها ما تقدم النقد الأدبي خطوة واحدة فكذلك لا ينبغي أن نهمل كتاب الرافعي هذا لأن فيه عبارات وكلمات جارية في حق الأستاذ العقاد فان فيه أيضاً من الآراء النقدية ما هو جدير بالنشر والذيع.

وبما أن تلك الكتب لم تحط من قدر أبي تمام والبحتري والمنتبي بل بقيت مكانتهم هي على عرض الشعر فكذلك بقي العقاد هو هو كما عرفه أهل عصره لم ينل (على السفود) من مكانته الحقيقة لأنه في النهاية - لا يصح إلا الصحيح.

إن هذا الأسلوب من النقد الهجائي عرفه أيضاً النصف الأول من القرن العشرين وكتبت فيه كتب كثيرة منها كتاب العقاد (قميز في الميزان) حين صب العقاد جام غضبه على أمير الشعراء أحمد شوقي وشعره وجرده من كل فضيلة وكذلك، كتب الدكتور زكي مبارك يشنع على أحمد أمين في صفحات مجلة (الرسالة) من خلال مقالاته (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) التي جمعت في كتاب كبير.

ولو أردنا أن نهمل كل كتاب وردت فيه عبارات جارية بحق إنسان عزيز علينا كالأستاذ العقاد - رحمه الله - أو غيره، لأسقطنا بذلك نصف الشعر العربي لأنه قيل في الهجاء ولأسقطنا نصف المكتبة العربية لأنه ما من كتاب إلا ونجد فيه بعض العبارات القاسية في حق عالم خالف المؤلف في رأيه وعقيدته.

إذن علينا العمل بالقاعدة الذهبية التي نقول:

ودع الذي فيه الكدر

خذ من زمانى ما صفا

ومنذ خلق الإنسان عرف الحب والكراهية والصداقة والعداوة ومع العداوة نشأ الهجاء وتفنن الناس فيه وعده النقاد أقوى الأنواع الشعرية لأنه صادق التعبير عن نفسية قائله ومشاعره، فالإنسان قد يوافق في المدح والرثاء ولكن لا يتصور أن يناقض في الهجاء.

فالمنتبي مدح كافوراً ولم يصدق أحد هذا المدح ثم هجاه فكان صادقاً في كل كلمة منه.

وللناس ولع بالإطلاع على عثرات الآخرين وتتبع عوراتهم ومثالبهم، ولا شيء يكشف لهم ذلك كالهجاء، ومن هنا كانت قصائد الهجاء أكثر سيورة على الألسنة من غيرها، ألا ترى أن أهاجي كافور حفظها الناس ومدائح بقيت حبيسة الكتب؟!.

وكتاب (على السفود) فيه من الجدة والعلم والأصالة ما يستحق إعادة نشره والإغضاء عما فيه مما لا يرضي أذواق الناس وارغب إلى الأخوة الأعزاء من محبي العقاد - وأنا منهم - أن يستبدلوا باسم العقاد زيدا من الناس كلما مر بهم اسم العقاد، ولولا الأمانة العلمية لفعلت ذلك، أو أن يحملوا ما فيه على الهزل والدعابة^(٢٧).

وبودي قبل أن أختتم أن أقف على التقويم الذي انتهى إليه الدكتور الطاهر مكي بعد الدراسة التي قدم بها كتاب على السفود (يؤكد أن الكتاب نموذج في النقد، يدل على نفاذ الفكرة، ودقة النظرة، وسعة الإحاطة، وقوة البصر بالعربية وأساليبها، أما الأسلوب الذي حمل إلينا هذا كله فتختلف فيه الآراء أيما اختلاف، بعضهم يرى أن هذا كله يمكن الوصول إليه في غير هجو القول وفحش اللفظ ومر الهجاء، وآخرون يرون أن الزمن يذهب بهذه الهوامش ويبقى الجوهر من هذه المقالات لا يبليه الزمن، خاصة مع غير المعاصرين وهم بطبيعتهم على الحياد بين هذا وذاك.

ويضيف د. الطاهر مكي: أن هناك فرقةً ثالثةً - د. الطاهر منها - ترى أن هناك طائفةً من الأدباء لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب السفود^(٢٨).

يبقى أن أقول إنه لا ينبغي لأديب مثل الرافعي يشهد له ما ذكرنا من النصاعة والبياض في سيرته وأدبه أن يحدث ما يشينه ويكون سبباً في قدحه ولو استطعت أن أخاطب الرافعي اليوم لقلت له:

أحفظ لشيبك من عيب يدنسه إن البياض قليل الحمل للدنس

*** **

رابعاً: شبهة المرض والفقر

شاءت حكمة الله أن يبتلى الرافعي بفتنتي المرض والفقر، أما المرض فقد أصيب بصمم وهو في العاشرة من عمره ظل يلزمه حتى مات كما أنه كان يعاني أمراضاً أخرى تعاوده بين الحينة والأخرى لا يكاد يشفى منها كالزكام والصداع المستمر وأمراض المعدة وغيرها من الأمراض الأخرى.

وأما الفقر فقد ظل يصارعه منذ أن نشأ إلى أن أدركه الموت وهو لا يملك بيتاً يسكنه وكثيراً ما كان يحار في طباعة ما يكتب إذ لا يملك من النفقات ما يستطيع به أن يخرج نتاجه الأدبي كي يقرأه الناس.

وما يدرينا قرب ضارة نافعة ولعل المرض والفقر كانا سبباً رئيسياً في حصول الإبداع عنده ولولاهما لما عرفنا الرافعي الكاتب والعقري والنابعة والإمام والأديب الملهم، ولست أقول هذا دفاعاً عن الرافعي وانتصاراً له ضد معارضيهِ وخصوصاً من أهل الأدب ولا سيما الأستاذة نعمات فؤاد أحمد التي (درست حالات المرض التي شكت منها رسائل الرافعي لتزعم من ثم أن أدب الرافعي مما يجب طرحه من المكتبة العربية لأنه صادر عن إنسان عاش مريضاً غير معافى...) (٢٩) ولكنني أعتقد جازماً بأن في نتاجنا الأدبي والفكري ما يؤيد ما قلته من أن المرض والفقر قد يكونان سبباً في التفوق والإبداع.

وثمة سؤال أوجهه إلى من يطلق مثل تلك الاتهامات غير المنطقية: هل كان بالإمكان أن يوجد كتاب مثل كتاب (المساكين) الذي ألفه الرافعي لولا أن صاحبه -رحمه الله- كان قد خاض غمار المسكنة وذاق مرارتها وقاسى في سبيل معالجتها والصبر على قساوتها عمره كله؟!.

وبعد فتلك مجمل الشبهات التي أثّرت عن شخص الرافعي وأدبه عرضتها عرضاً يناسب المقام ويفهمه أولو الشأن من الأنام ناقشته مناقشة الباحث الذي لم يكن يوماً عبداً لشخص من الشخص و إنما هو الفكر والأدب لا شيء سواهما....

رددت ما استطعت ردّه لصاحب الحق وللحقيقة بما توافر لي من أدوات البحث والنقد والتحليل ومن ثم الموازنة فالحكم. بذلت في ذلك غاية علمي المحدود. وفوق كل ذي علم عليم.

المبحث الثاني

منتقى الإشارات

*** **

أقوال وشهادات واعترافات أوردها تكملة للرد على الشبهات وسعياً مني لمواصلة الذب والذود عن حياض ذلك القلم الذي أوحى إليه العلم فكتب والهم الفكر ولا عجب فنبت واستحق العبقرية من غير مصلحة له ولا طلب.

ولعلي أبدأ تلك الأقوال بالشهادات العظمى التي صرّح بها الإمام اللغوي صاحب مجلة الضياء إبراهيم اليازجي بعد إصدار الرافعي ديوانه الشعري الأول يقول فيها: (إن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة

والعشرين من عمره ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذا السن سيكون من الأفراد المجليين في هذا العصر وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر^(٣٠). وفي معرض حديثه عن الديوان قال اليازجي (...). وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة وتبسّط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيّته، في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه (...)^(٣١).

أما كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) فقد شغل به الخصوص والعموم وجاءت إشاراتهم بهذا الكتاب تتوالى الواحدة أثر الأخرى في وقته وإلى الآن فمن أولئك الصادقين:

محمد رشيد رضا الذي قال فيما قال: (استوى إلى هذا وانتدب له الأديب الأروع، والشاعر النادر المبدع، صاحب الذوق الرقيق والفهم الدقيق، والغواص على جواهر المعاني الضارب على أوتار مثالها والمثاني، صديقنا الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) فصنف في المجاز القرآني سفرًا لا كالأسفار، أتى فيه - وهو الأخير زمانه - بما لم تأت به الأوائل، فكان مصداقاً للمثل السائر كم ترك الأول للآخر (...)^(٣٢).

ومنهم صادق عنبر - رحمه الله - الذي كتب مقالاً في جريدة الأهرام يخاطب فيه الرافعي فيقول:

(إلى صديقي نابغة البيان الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي لا أراني أنصفك إذا أثنت عليك بكلمي، ولو أحفيت قلبي، فوالذي جعل الورد لا ينبت إلا في أغصانه وخلف الليل وخصه بألحانه وجانس بين الأشجار في المنبت ونوع في الأشجار والثمر، والحشر النجوم في سماء الليل وأفرد بجهال الليل القمر، أنك من البلاغة بحيث لا يصفك كما أنت إلا قلمك أنت، وما أجد في الثناء على كتابك أقل من أن أقول لك أعجزت، إذا لم أجد لغيرك أكثر من أقول له أحسنت، فهذه يا سيدي كتابة أم سحر بالكتابة؟ ومعان تنقح من فكرك أم برق يتتابع من سحابه؟ وهل وضعت كتابك في الأعجاز؟ أم للإعجاز؟ لتري الناس حقيقة لم يكونوا يعرفونها إلا في المجاز؟ ولقد جئت بكتاب يقاس عليه في البلاغة، أما هو فجاء عن القياس فمن يعجب عليك من بعد فما أطول هم فصوص الملح بفص الماس.

حيا الله ذلك القلم الذي أقام به الأدب مجده، ولا زال في آيات البلاغة كالأية التي تجب عندها السجدة)^(٣٣).

ومنهم سعد زغلول الذي ما أن أتم الرافعي نشر كتابه هذا حتى كتب إليه مخاطباً يقول:-

(حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي تحدى القرآن أهل البيان في عبارات قارعة محرجة ولهجة واخزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه فما فعلوا ولو قدروا ما تأخروا لشدة حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيماهم واتسع له إمكانهم.

هذا العجز الوضع بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الدليل عند ذلك الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز.

ولكن قوماً أنكروا هذه البداهة وحالوا سترها فجاء كتابكم (إعجاز القرآن) مصداقاً لآياتها مكذباً لإنكارهم وأيد بلاغة القرآن وإعجازه بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان يستمد من رحمها بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم.

فلكم على الاجتهاد في وضعه والعناية بطبعه شكر المؤمنين وأجر العاملين والاحترام الفائق)^(٣٤).

وسوى الكلام عن كتاب (إعجاز القرآن) للرافعي كلام كثير توزع على شخصه وقلمه وكتبه وفنه العظيم ولعلي أذكر ما أجده دون النظر إلى أسبقية في القول أو خصوصية لشيء دون آخر فالمهم عندي توفر المدح والثناء واستقصاء الإشادة التي تظهر الحقيقة التي غابت عنا وعن كثير من أهل الأدب والقراء العاديين، ومن الجميع اليوم أرجو أن يسمعوا تلك الأقوال وهذه الأخرى ومنها الإشادة التي حظي بها الرافعي من لدن الإمام الشيخ (محمد عبده) ومفادها:-

(ولدتنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدباً: لله ما أثمر أدبك والله ما أضمن قلبك لا أقارضك ثناء بثناء فليس ذلك شأن الإباء مع الأبناء أعدك من خلص الأولياء، وأقدم صفك على صف الأقرباء، واسأل الله أن يجعل للحق على لسانك سيفاً يمحى الباطل وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل والسلام)^(٣٥).

أما مصطفى كامل باشا زعيم مصر فقد كتب إليه يقول:-

(سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس:- هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان)^(٣٦).

وعن كتاب (تأريخ آداب العرب) تحدث الأستاذ أحمد لطفي السيد حديث المعجب المحبذ وعدّ كتاب الرافعي هذا فتحاً جديداً في بابهِ^(٣٧).

كما أشاد الأستاذ أحمد زكي شيخ العروبة بالكتاب نفسه في مجلس علمي بإدارة الجامعة المصرية وقال: إنه فتح جديد^(٣٨).

وبعد أن أصدر الرافعي مؤلفه (كتاب المساكين) قال أيضاً: (لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنكليز شكسبير، وغوته كما للألمان غوته وهيجو كما للفرنسيين هيجو)^(٣٩).

أما الأمير شبيب أرسلان فقد أفرد له مقالاً رناناً في صدر المؤيد فيه (... انه لو جاز أن يعكف على كتاب في نواشئ الأسحار بعد كتاب الله لكان كتاب تأريخ الأدب العربي)^(٤٠) ثم خلع الأمير شبيب على الرافعي لقب إمام الأدب وحجة العرب^(٤١).

وقد رثى أرسلان صديقه الرافعي بقصيدة وصفها الكاتب حسن السماحي سويدان بأن كل بيت فيها قصيدة تترنم، وكل كلمة تأريخ يتكلم، قال - رحمه الله -^(٤٢)

ان الذي قد ضم جسمك للثرى قد ضم فيه العبقري الأكبر

كان ابن بحر^(٤٣) واحداً ففضلته

بأوائل كانوا جميعاً أبحرا

(الرافعيين) الأولى فرعوا العلى

وتدبروا في كل فن عبقر^(٤٤)

من مثل نادرة الزمان (المصطفى)

سلطان من وشى الطروس وحبرا؟

إلا تكن قد أنجبت إلا (أبا

سام)^(٤٥) كفاه أن تسود وتظهرا

قد كان في جيش البيان مكانة

ما كان يوماً (تبغ) في حميرا

ما أن رأى العصر الحديث نظيره

فحلاً يباري الأولين ولن يرى

قل للمحاول أن يرى أنداده:

أقصرُ (فكل الصيد في جوف الفرى) (٤٦)

ملاً الزمان بدائعاً وروائعاً

بقريحة تحكي الغمام الممطرا

تلك القريحة تمرى أخلافها (٤٧)

أبدأ وليس يغيضها (٤٨) ما يمتري

تدع الخيال لدى العيون مجسماً

مهما توارى شخصه وتنكرا

وترى المعاني كالشياه مقادّة

بيّنا تكون من الجآذر (٤٩) انفرا

أما خصوم الرافعي وممن كانت لهم معارك أدبية طاحنة معه فقد أبى بيان الرافعي إلا أن يرغمهم على قول الحق، فقد كتب الأستاذ عباس محمود العقاد عن أسلوب الرافعي قائلاً: (وانه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لم يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها) (٥٠).

ويقول أيضاً: (إني كتبت عنه - أي عن الرافعي - أن له أسلوباً جزلاً، وأن له من بلاغة الإنشاء ما يسلكه في الطبقة الأولى من كتاب العربية المنشئين).

أما الدكتور طه حسين فهو الآخر لم يجد بداً من الاعتراف ببيان الرافعي حين قال: (وكذلك تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إن حظه من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقتها وأسرارها، قليل وإنما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة - كما يعلمها الأستاذ الرافعي - قليلون جداً، وأحسبهم يحصون أيضاً) (٥١).

أما خصم الرافعي الثالث وهو الأديب محمد عبد القادر المازني فقد كتب عنه غداة وفاته فقال: " لقد كان يوصف في حياته بأنه حجة العرب، وهذا صحيح وغير قليل من أدب الرافعي سيبقى على الأيام، ما بقي للأدب ذكر ومقام.. وأحسبني لا أبالغ حين أقول إن له من آثاره ما لا يرقى إليه قلم في القديم أو الحديث، وإن له صفحات عديدة في كل كتاب له، يبلغ فيها ذروة البلاغة.. وقد كان رأيي فيه دائماً، أنه أعلم أهل العربية، وأوسع أدبائها اطلاعاً على علوم الدين.. " (٥٢)

فهؤلاء هم خصوم الرافعي يشهدون بما سمعنا فماذا يقول أصدقاؤه ومحبه.

ولقد قيل: والفضل ما شهدت به الأعداء.

وعن كتب ((رسائل الأحزان) و (السحاب الأحمر) و(أوراق الورد)) يصرح الأستاذ طاهر الطناحي وهو يتحدث عن الرافعي بأن هذه الكتب الثلاثة (أول رسائل أدبية في اللغة العربية كتبت بهذا الأسلوب، فلم يسبق لأديب عربي قبل الرافعي أن يكتب على هذه الطريقة الجديدة التي أودع فيها فلسفة الحب وفلسفة الجمال وخلجات النفس وخواطر الوجدان في أسلوب فني خصب رفيع) (٥٣).

ويختتم الطناحي حديثه عن الرافعي مترحماً على روحه الطاهرة (فقد كان أديباً نابغاً وكاتباً عربياً كبيراً وكان له في شعره ونثره دعابات لطيفة ونفثات ظريفة وكان ذا طبيعة فنية ممتازة وموهبة روحية بارزة رفعت ذكره وسجلت اسمه في سجل النوابغ الخالدين) (٥٤).

وقال عنه رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية العلامة الأستاذ أبو الحسن علي الحسيني الندوي - رحمه الله - (انه أديب راسخ لا يزل ولا ينحرف وصير في حاذق كأن كلماته دنائير مصقولة يلفظ الدر وينفث

السحر وإذا حكى حادثه قديمة أو بنى على أساس رواية تاريخية أو جملة فكأنما رد التاريخ على أعقابهِ أو قَدَّ ابن المقفع أو تنكر به فكأنما أبرز نسخة خطية لكتاب ... كليله ودمنة..^(٥٥)

وفي كتاب له تضمن دراسة عن كل من - الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد والرافعي وأبي القاسم الشابي - يعرب الدكتور عبد العزيز المقالح عن كبير إعجابه وعظيم دهشته بشاعرية الرافعي وتفوقه في ذلك على خصومه الذين ذكرت، بعد أن خص له المجال الأوسع في الكتاب وعدّ كتاباته النثرية عاملاً مساعداً في ما سمّاه التغيير والتمهيد للثورة الشعرية الراهنة وذلك في قوله: (إن فهم الرافعي للشعر الحديث يفوق فهم طه حسين له، وإن ممارسته للشعر تفوق ممارسة العقاد الذي ظلّ ستين عاماً ينظم الكلام ويوزنه ويقفّيه دون أن يكتب قصيدة واحدة تنتمي إلى الشعر. وهذا كله يؤكد - في النهاية - أن الرافعي أديب عظيم من هذا العصر، وأن كتاباته النثرية ذات الطابع الشعري قد ساعدت إلى التغيير، والتمهيد للثورة الشعرية الراهنة)^(٥٦).

أما الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله فقد أشاد بالرافعي من خلال نعتة بسملة الاستعارة التي اشتهر بها أسلوبه وذلك عند حديثه عن آثار الدكتور طه حسين يذمها فيقول: (ليس له صناعة الزيات ولا استعارة الرافعي ولا سلاسة المازني ولا طبع أحمد أمين ولا فكر العقاد ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك...) (٥٧).

وللأستاذ علي السماحي سويدان وقفات كثيرة وإشادات حارة عظيمة يرويها لنا قلمه في تصديره لكتاب الرافعي (على السقود) أبداً معه تلك الوقفات وهو يصف لنا فصول الكتاب فيقول إنها (لا تبلغ أن تكون مقالات من الطراز الذي يجوّده الرافعي ويحشد له من المادة ومن وجوه الرأي ومن صنعة البيان ما يكاد كل مقال به كتاباً على حياله إذا أنت فصلت مجمله وفرّعت على أصوله وبينته بالشواهد والأمثلة رجع كتاباً مستجمعاً لعناصره مستوفياً بالكلية لاسم الكتاب)^(٥٨).

وقال عنه في موضع آخر: (الرافعي أديب عبقر في الطبقة الأولى من أدباء العالم العظام كان شديد الوعي بما نهى له في أدبه بالقياس إلى آداب العربية وإلى المصطفى من آداب العالم لا يرتاب فيه ولا يتردد)^(٥٩).

وعن بداعة الرافعي في نقد الشعر وولوجه أصعب أبواب النقد يعبر عن ذلك النجار بالقول: (... والذي قدر عليه الرافعي في هذا الباب خاصة - في عامة ما تكلم عليه في هذا الباب وفي غيره - لم يقدر عليه من أهل عصره أحد ولا اقترب منه إلا ما كان من العلامة الكبير محمود محمد شاكر في أخريات حياة الرافعي وبعد وفاته، وهو عبقرية فنية أخرى بالمعنى الكامل للكلمة كما يعرفه العارفون بآثاره)^(٦٠).

وتحت عنوان (الإمامة) يورد لنا الدكتور مصطفى نعمان البدر في كتابه (الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد) أقوالاً لمعاصري الرافعي يؤكد فيها استحقاق الرافعي لقب الإمام بجدارة وذلك في قوله (إن إمامة الرافعي للأدب العربي قد أقرّها معاصروه بشكل ما وكان اسبقهم إلى بيعته بها الأمير شكيب أرسلان مذ يوم أرسل إليه وخاطبه ومنذ عرف بكتابه الجليل (تاريخ آداب العرب) حتى المعركة الاعتقادية التي ظاهره فيها وخاطبه بمثلها أمير شعراء العربية أحمد شوقي - على ما كان بينهما من منافسة -، وقد عده إبراهيم عبد القادر المازني أعلم أهل العربية بتاريخها وفنون آدابها كما عده عباس العقاد من أفذاذ أدباء العرب واعترف له طه حسين بالفطنة ونظر إليه (من بعيد) إنصافاً يذكره بالحسن في بحثه عن كلمة (أدب) وأطوارها وكيف كان يقرأ ويفهم ولا يأخذ أو ينفك إلا ما يحتاج إليه وافر بها مخالفاً أيضاً وكذلك أرخ له الأستاذ عمر الدسوقي في الأدب الحديث وأشار إلى هذه الإمامة إذ قال: (كان الرافعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون ومعظم أتباعه من هؤلاء الذين يرون برأيه في الحياة المعاصرة وقيسونها بمقياس المثل العربية)^(٦١).

وبعد مناقشة طويلة يجريها الدكتور البدر بينه وبين الرافعي ومجموعة من الأدباء والنقاد يعطي البدر بيانه الختامي يفصح فيه عن رأيه الخاص بالرافعي قائلاً: - (وقد أوتي الحكمة والفضل، وتقدم بالتعبير

والإنشاء خطوات مشهودة، ومكّن للتأليف بمنهاج عرض له في محصلة من ضم المذاهب والأفكار والتقائها، واتخذ النقد وسيلة للإتيان على الجوانب الضعيفة من الفكر والأدب وإقامة المعادلة من أمرهما، وآتى الأدب فقهاً ونماءً، وعرف بالعربية أهلها، ومكن لها من الثبات أمام زحوف اللغات والفسولات واتخذ الذوق حجة، والأسلوب تمكناً والفكر ميداناً تجول فيه المعارف والصفات.

وكان قد اجتمع له من العلم والبصر بالعربية وآدابها وفتن الجمال في بيانها، ومن المعارف والثقافات ما أشرق به عليها في عصر وقفت فيه على مفترق خطير ! فكان الأديب الذواق بحق، والمنشيء المكين بصدق، والمؤلف الثبت باقتدار والناقد القويم، والإمام الذي تجتمع فيه الرجولة والضمير والدم الكريم، ويمضي به الحب والجهاد والإخلاص، ويهيم فيه السمو والجلال والشهادة.

وما كان كذلك فحسب، وإنما كان العربي المؤمن الذي تمثلت فيه سيرته وأدبه حقيقة العصر الذي عاشه^(٦٢).

ومن بدائع ما قيل في الرافعي إثر إصدار ديوانه الأول تقرّظ الشاعر الإحيائي حافظ إبراهيم إذ يقول:

أراك - وأنت نبت اليوم تمشي	بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة في المعاني	وما دانيت حدّ الأربعينا
فزن تاج الرأسة بعد (سامي)	كما زانت فرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريضاً	على ملك القريض وكن أميناً
فحسبك أن مطريك (ابن هاني)	وأنت قد غدوت له قريناً ^(٦٣)

وقال عنه أمير الشعراء أحمد شوقي:

أعزني النجم أو هب لي يراعاً	يزيد الرافعيين ارتقاعاً
تأمل شمسهم وهدى ضحاهم	تجد في كل ناحية شعاعاً ^(٦٤)

وقال عنه ربيبه وتلميذه ووارث علمه الأديب محمد سعيد العريان: (لقد عاش الرافعي غريباً ومات غريباً فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ويذكر الأمة العربية والإسلامية بماضيها المجيد ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته لقد حقن الصوت ولكنه خلف صدهاء في أذن كل عربي وقلب كل مسلم يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب وعز الإسلام)^(٦٥).

ولقد أنصفه أحد المعاصرين وهو محمد رجب البيومي حين قال: (لقد وازن الرافعي بين كاتب وكاتب وهذه الموازنة هي التي جعلنا نعرف كيف تميز الرافعي وحده بنمط من البيان ليس له شبيه في القديم والحديث وأقرأ أن شئت آثار أبي حامد الغزالي وابن حزم الأندلسي وأبي الفرج ابن الجوزي في القديم، كما أقرأ إن شئت الآثار الإسلامية لمحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمد فريد وجدي في الحديث وكلهم علم من الأعلام في دنيا البيان الديني لا مرأى، وكلهم كتب فأقنع وصور فأمتع وجادل فأفحم ولكنهم جميعاً شيء والرافعي شيء آخر هؤلاء كتبوا في الأدب فدينوه وكتبوا في الدين فأدبوه ولكنهم لا يحسون إشعاع اللفظ وإيحاءه كما بحثها الرافعي ولا يبدعون الصورة الكلية الممتدة كما يبدعها الرافعي ولا يتغلغلون إلى أعماق الأعماق في الفكرة الإسلامية كما يتغلغل الرافعي إذ كان له - رحمه الله - من رقة الاستشفاء في حيز اللفظ الواحد وأن تركب من حرفين ما تجد نظيره فيما تطالع من الدراسات كما كان له من بعد الغوص في المعنى الديني ودقة مرماء ما هو جدير به وحده دون سواه)^(٦٦).

ثم يثني البيومي الوصف قائلاً: (إذا طلبت للرافعي الناثر شبيهاً يحاكيه، فاترك الإنسان إلى غيره من مظاهر الطبيعة، لتجد للرافعي ذلك الشبيه المنشود!.. هل رأيت الرعد المجلجل الذي يأخذ عليك سمعك وشعورك، حين يدوي في الفضاء؟ هكذا يكون الرافعي، حين يزأر غاضباً، لحرمة تنتهك، أو معصية تداع. هل رأيت النسيم الهادي، يرف على الروض الزاهر فيحمل عبيره الفواح إلى النفوس.. يشرح به الصدور ويمتع به الأحاسيس؟.. هكذا يكون الرافعي، إذا رق في عتاب، أو عذب في مناجاة، أو حن إلى حبيب غائب... ثم هل رأيت النمير العذب، يتفرق به الجدول الصافي، فتتهل منه شراباً لذيق الرشف، حلو الوقع من اللهاة والصدر؟ هكذا يكون الرافعي، إذا روى حديثاً عن السلف الصالح ويدعو إلى القدوة الحسنة عن هدى وإيمان)^(٦٧).

ويقول عنه الدكتور عبد الوهاب عزام إنه: (أوتي من النور الإلهي، قلباً ومن الفيض الإلهي ينبوعاً، فلبث دهره نسيجاً وحده، ينير للسالكين، ويسقي الظامئين)^(٦٨).

وأختم القول بشهادة الدكتور مصطفى الشكعة الذي صرح مادحا فقال: (إن مصطفى صادق الرافعي لم يكن كاتب الفكرة الإسلامية وحسب، ولم يكن رائد الدعوة المؤمنة وحسب، وإنما كان سبباً لهداية كثير من كبار كتاب العربية المعاصرين له، فأصبحوا بفضل دعوته ومن بعده كتاباً مؤمنين، وسدنة في محراب الفكر الإسلامي بعد أن كانوا في طرف آخر بعيد كل البعد عن نطاق العقيدة وجوهر الفكرة الإسلامية، وبعد أن كانوا يتفخرون بالتحامل عليها ويتظاهرون بالتطاول على حماها. لقد كان الرافعي خيراً وبركة على اللغة العربية الجليلة بمنافحته عنها وخدمته لها وفنائته في الذود عن حياضها، ولقد كان الرافعي كذلك خادماً للعقيدة الإسلامية، مبشراً بالفكرة الدينية، حاملاً لواءها حتى غادر دنيانا ولا زال ممسكاً بقبضة السارية، فهل هناك من بين أدباء المسلمين من يتسلم العلم؟)^(٦٩).

أما أنا فما عساني أن أقول في ذلك الأديب النابغة العبقرى أديب زمانه الكاتب الملهم والشاعر المتمم ربيب القرآن والسنة، عشيق اللغة والأدب والأصالة، يكفيه فخراً أنه أعطى رأيه بالنابغة والعبقرى وفرق بينهما تفريقاً دقيقاً، وكذا الأديب والناقد وتكلم عن الإلهام ومن هو الملهم وكيف يكون، ثم عرج على الشعر والشاعر حيث رسم لنا في النهاية صورة عن الأدب؛ ماهيته وأهميته ودوره في الحياة وفي المجتمع.

كل هذه العناوين وغيرها تصدى لها الرافعي - رحمه الله - بجدارة وأعطى كلا منها حقه من التفصيل بما تنشرح له الصدور وترتاح له النفوس وتقره العقول ويشهد بصحته راغباً غير مكره المثقف ومن هو أقل ثقافة وكل من له إطلاع يسير على الأدب وفنونه وبالشعر وأصوله ما دام يمتلك العدل والإنصاف في نفسه والموضوعية والحيادة في رأيه، فالرافعي هذا بحق أديب زمانه، حوى من كل شيء أحسنه وجمع من كل شيء أنقاه وأخرج لنا من بين قديم وحديث أدباً خالصاً سائغاً للقارئ.

فكيف بنا اليوم ننكر منه ذلك كله وكيف نضع الحجب أمامنا حتى لا نرى من ذلكم الكنز شيئاً، وكيف يحال بين آراء الرافعي وكل هذه الفنون، وكيف يهشم الرافعي هذا بلا أي ذنب يذكر ولا أية حجة ترى أو برهان؟!

أليس من الإنصاف أن تنزل الناس منازلهم؟!

والله لو أنا أنصفنا الرافعي لكان في مقدمة النقد والكتاب والشعراء في عصرنا الحديث وبلا منازع. ولست أبالغ إذا أضفيت عليه لقب المجدد في الأدب والفكر.

ألم تر أن الحياة أورقت في أوراق ورده، وتحول الحزن إلى فرح عند رسائل أحزانه، ومضى السحاب بفنه يطفئ ناره الحمراء بفيض غيئه، وما عاد يطلع القمر إلا وللناس كل الناس شوق إلى محادثته إثر حديث قمره، وابتهل الأدباء يرجون الوحي طمعاً في معارضة وحيه، وأزيح بالمساكين هم الفقر وضنك العيش ممن مضى في همه، وتمنت كليله ودمنة أن لو كان السقود قد قيل فيها حتى غار ابن المقفع وتقهقرت الريادة لما دنا من رمزه، وللمصاحف أنصار تشاجروا في الذود عنها فارتفعت من بينهم معلنة

الصدارة والتفوق رايته، وحرار في تأريخه أصحابه ورفعت الهوامش أصواتها تشكوا انعدام مكانها والعجب يملأ من قرأ لذكائه ولحفظه.

ولقد قلتها وأقولها لو لم يكن في دراستي للرافعي - رحمه الله - سوى إطلاعي على مؤلفاته وكتبه لكفاني فخراً وعلماً ولغة وأدباً وغبطة، وندائي للجميع أن ينبغي أن لا تخلو مكتبة أحد منكم من مؤلفاته، وأن لا يغادر أذهانكم قول أبي تمام الخالد:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار في ما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

رحم الله الرافعي فقد عاش غريباً يدافع عن اللغة والدين ومات غريباً لم ينل العناية التي يستحقها والتي تليق بأديب مثله.

الخاتمة:

بعد هذه المعركة المحترمة التي خضتها أنا والرافعي ضد خصومه خلصت إلى بعض النتائج التي أفرزها هذا البحث، ومنها:

١. إن الرافعي الأديب لم يكن غامضاً في أسلوبه إلى الحد الذي لا يفهمه الأدباء والمثقفون؛ وإنما هي المعيشة الداخلية التي عاشها الرافعي وحيداً في عزلته عمن حوله من الناس بسبب الصمم المبكر الذي أصابه؛ والتي جعلته يكتب بأسلوب عالٍ يشبه إلى حد ما أسلوب الكتب القديمة التي نشأ وترعرع بينها والتي لا يتسنى لكثير من المتهمين فهمها لجهلهم بأساليبها أو إن شئت معناها.

٢. إن العمق والغموض التي لا نُسلم بصحتها لكنها الدقة في الأسلوب وفي الفكرة؛ هذه الدقة المتناهية التي استشكلت على كثير من أهل الأدب وغيرهم من القراء كانت ضرورة لا بد منها لرجل أديبٍ مجدد مثل الرافعي وذلك لأسباب عدة منها:

أ. إن الرافعي مثل حلقة وصل بين الماضي التليد والحاضر الجديد لذا لا بد لرجل عاش في هذا الزمن وله هدف كهذا أن يقترب أسلوبه من أسلوب القدماء مع شيء من المعاصرة يمزجها به.

ب. إن الرافعي لما رأى المؤامرة على اللغة الكبيرة وأنها والأدب باتا يحتضران أراد أن يحافظ عليها من الضياع ويحفظها في معجم الرافعي الخاص.

ج. أراد الرافعي أن يثبت لأولئك الذين يتشككون بالأدب من دعاة التجديد - ولا تجديد - أنه قادر على أن يجدد في الأدب بما يحفظه ولا يضيعه؛ تجديداً كتجديد أبي تمام وكفى.

٣. يمثل الرافعي صاحب مذهب فريد في الكتابة الأدبية قد لا نجد له نظيراً في عصره والعصور التي تلتها، لما يتمتع به من نكهة خاصة في أسلوبه ومعانيه، وهو ما جعله ينعت بقولهم (أمة وحده) أو قولهم (نسيج وحده).

٤. حظي الرافعي بمدح وإطراء عمالقة الفكر والأدب من أبناء جيله ومن جاء بعدهم ممن نهجوا نهج الأدب الصحيح، وفي ذلك ما يكفي لدحض الشبه التي أثيرت حوله وما يؤكد له الريادة.

٥. إن ما قيل عن الرافعي من كونه من ذوي العاهات؛ وهي الصفة التي ينتقص بها من الرافعي، أصبحت فيما بعد حجة على هؤلاء الحساد خصوصاً بعد رؤيتنا لأسفاره الخالدة وما سطره لنا قلمه الساحر، وجعل منه يحظى بمنقبة قد تضاف إلى مناقبه الأخرى يحق لنا أن نسميه بعدها: (معجزة الأدب).

المصادر والمراجع

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط ٩ ، ١٩٧٣ م .
- أوراق الورد رسائلها ورسائله ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٩ ، ١٩٧٣ م .
- بدائع الحكم من وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، جمعها وبوبها حسن السماحي سويدان، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ط ١، ٢٠٠١
- تحت راية القرآن ، صحح أصوله محمد سعيد العريان ، دار الكتاب العربي ، ط ٧ ، ١٩٧٤ م
- حياة الرافعي ، محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥٥ م
- ديوان أحمد شوقي
- ديوان حافظ إبراهيم
- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ، د. مصطفى نعمان البدري ، دار الجيل بيروت ، دار عمار ، ط ١ ، ١٩٩١ م .
- رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ب ط ، ١٩٩٩ م
- رسائل الرافعي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ب ط ، ١٩٥٠ م.
- روائع الطنطاوي ، إبراهيم مضواح الألمعي ، دار المنارة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م .
- ساعات من حياتي ، طاهر الطناحي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ب ط ، ب ت .
- على السفود ، صححه وعلق عليه حسن السماحي سويدان ، راجعه وقدم له د . عز الدين البدوي النجار ، دار البشائر ، دمشق ، دار المعلمة ، الرياض ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ م
- عمالقة عند مطلع القرن عبد العزيز المقالح ، دار الآداب ، بيروت .
- قصص من التاريخ
- مجلة الأدب الإسلامي ، العدد ٤٣ و ٤٤ ، ٢٠٠٤ م ، فصلية تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- مجلة الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧
- مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد ١٩٧٩
- مجلة المقتطف ، إبريل ١٩٢٥ .
- مجلة الوحدة الإسلامية ، السنة الثانية العدد ٢١ ، ٢٠٠٣ م ، تصدر عن تجمع العلماء المسلمين .

الهوامش:

- (١) بإيجاز من كتاب «حياة الرافعي» للكاتب محمد سعيد العريان.
- (١) وحي القلم: ٣ / ١٥٢.
- (١) يعني الدكتور طه حسين ومؤيديه.
- (٢) حياة الرافعي: ٧٥.
- (٣) انظر كتاب من أدب الرافعي ومعاركه للدكتور عباس بيومي عجلون ٧٧ - ٧٨. وانظر كذلك: تحت راية القرآن / الرافعي: ١٠٥ وما بعدها.
- (٦) على السفود، التصدير: عز الدين النجار ١٠.
- (٧) ينظر: المصدر نفسه ١٠.
- (٣) على السفود: تصدير عز الدين النجار: ١٥.
- (٤) الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧.
- (١) مقالة للزيات بعنوان: مصطفى صادق الرافعي، نقلا عن كتاب كلمة وكليمه: ٧٠ - ٧١
- (١١) مجلة الوحدة الإسلامية / السنة الثانية / عدد ٢١ / جمادى الثانية ١٤٢٤ هـ، آب ٢٠٠٣ م، تحت عنوان (مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعاً عن العربية) الشيخ خليل حوراني.
- (١٢) تصدير سعيد العريان لوجي القلم: ٧/١.
- (١) انظر مجلة الأدب الإسلامي عدد ٤٣، ٤٤: ص ١٤٤.
- (٢) أنظر وحي القلم: ٣ / ١٥٣.
- (١٥) مجلة المقتطف إبريل ١٩٢٥ : ، نقلاً عن الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد: ٤٦٥.
- (٢) وحي القلم: ٣ / ١٥ - ١٦.
- (١٧) صدر كتاب وحي القلم: ١ / ٨.
- (١) انظر حياة الرافعي: ٤٣.
- (١٩) ساعات من حياتي طاهر الطناحي: ١٠٤.
- (٢٠) المصدر نفسه: ١٠٥.
- (١) رسائل الرافعي: ١٩٤ - ١٩٥ .
- (٢) مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعاً عن العربية. خليل حوراني، مجلة الوحدة الإسلامية، عدد ٢١ / ٢٠٠٢
- (٢٣) وحي القلم : ٥١/١ نقلاً عن الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد .
- (٢٤) مصطفى صادق الرافعي، كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً: ٢٦ .
- (٣) رسائل الأحزان: ٥
- (٢٦) حياة الرافعي: ١٤٨ وانظر: تحت راية القرآن: ٥ في التنبيه .

- (٢٧) على السفود / المقدمة / حسن السماحي سويدان: ٦ - ٨.
- (٢) مقدمة لكتاب على السفود ، د. الطاهر أحمد مكي ، نقلا عن مقالة بعنوان: على السفود قراءة جديدة في معركة قديمة.
- (٢٩) انظر: في ذيول المشاكسات/ مجلة كلية الآداب/جامعة بغداد ١٩٧٨ بحث للأستاذ مصطفى نعمان البدري
- (٣٠) أعلام الأدب والفن، أدهم الجندي: ٢ / ٤١٧.
- (٣١) على السفود (التصدير): ١٢.
- (٣٢) إعجاز القرآن ، الرافعي/ عرض الكتاب: ٢٠.
- (٣٣) رسائل الرافعي ، الرافعي/ الهامش: ١٣١ .
- (٣٤) على السفود / الرافعي : ١٤-١٥.
- (٣٥) على السفود / الرافعي: ١٢.
- (٣٦) المصدر نفسه / الرافعي: ١٣.
- (٣٧) ينظر: مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعاً عن العربية، : ٢٢.
- (٣٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢.
- (٣٩) من أعلام الأدب والفن: ٢ / ٤١٧
- (٤٠) المصدر نفسه: ٤١٧.
- (٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٤١٧.
- (٤٢) بدائع الحكم من وحي القلم: ٢٢ - ٣٠.
- (٤٣) يعني الجاحظ.
- (٤٤) الكامل في كل شيء.
- (٤٥) كنية الرافعي، و سامي الذي تكنى به هو محمود سامي البارودي.
- (٤٦) الفرى: حمار الوحش، وهو مثل يضرب للرجل الكامل.
- (٤٧) الضروع.
- (٤٨) ينقصها.
- (٤٩) جمع جؤذر، ولد البقر الوحشية، أي المعاني العسيرة تنقاد له وتسلس.
- (٧) من أعلام الأدب والفن: ٣ / ٤١٧.
- (١) انظر: مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المظلة على السورالية: ٤٩.
- (٢) المصدر نفسه: ٤٩.
- (٥٣) ساعات من حياتي: ١٠٤.
- (٥٤) المصدر نفسه: ١٠٦.

- (٥٥) مختارات من أدب العرب: ١٥١.
- (١) عمالقة عند مطلع القرن: عبد العزيز المقالح ١٩٢.
- (٥٧) روائع الطنطاوي، إبراهيم مضواح الألمعي، دار المنارة ط١، ٢٠٠٠ م: ٩٧.
- (٥٨) على السفود / التصدير: ٣١.
- (٥٩) المصدر نفسه: ٣٧.
- (٦٠) على السفود / التصدير: ٥٨ - ٥٩.
- (٦١) نشأة النثر/عمر الدسوقي : ٤٣٥ - ٤٣٦ نقلا عن: الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد.
- (٦٢) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد : ٤٧٧ - ٤٧٨.
- (٦٣) ديوان حافظ إبراهيم: ١ / ١٤٩ .
- (٦٤) ديوان احمد شوقي:
- (٦٥) حياة الرافعي: ٣٤٩.
- (٦٦) مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن/ محمد رجب البيومي: ٤٩ - ٥٠.
- (٦٧) المصدر نفسه: ١١ - ١٢.
- (٦٨) مجلة الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧. نقلا عن كتاب: قصص من التأريخ/الرافعي
- : المقدمة.
- (٦٩) مصطفى صادق الرافعي كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً: ٥٢.